

البتراء في معركة التحدي والرد... صلافة البداوة، وسلاسة الحضرة.

د. جورج يونان

مقدمة:

يقول المؤرخ جرجي زيدان (العرب قبل الإسلام، ص ١١-٤٩): اصطلح مؤرخو العرب أن يقسموا تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين:

- العرب البائدة، أو "العمالقة" وهم عرب الشمال في الطور الأول، وقد بادوا قبل الإسلام، وكان منهم:

- عمالقة العراق، أو دولة حمورابي.

- وعمالقة مصر، أو دولة الرعاة الهكسوس.

- ودولة الأنباط. - ودولة تدمر.

العرب الباقية وهم:

- القحطانيون أهل اليمن ومنهم كانت: - الدولة المعينية: الدولة السبئية؛

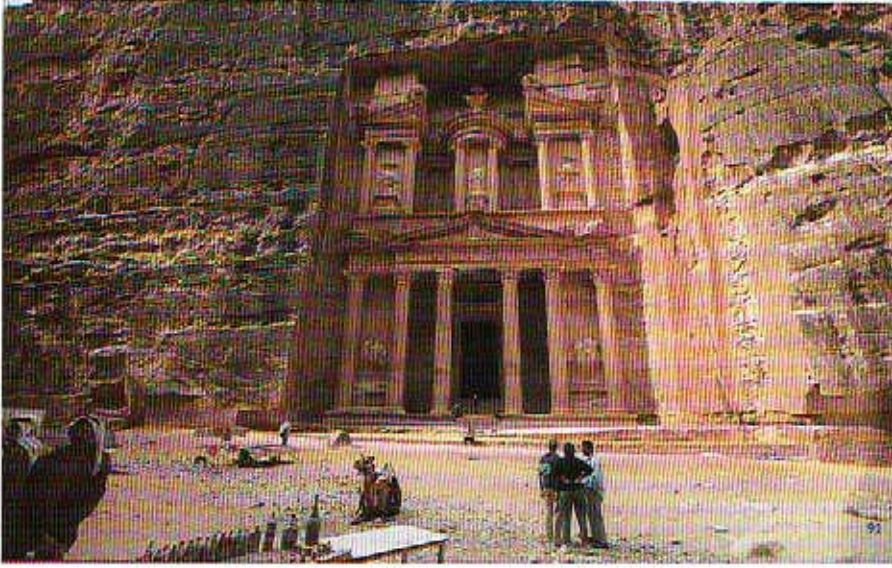
الدولة الحميرية

- العدنانيون، أو الإسماعيليون أو عرب الشمال في الطور الأخير.

كانت السيادة، في الدور الأول القديم للعرب البائدة. وفي الدور الوسيط كانت للقحطانيين في اليمن، وفي الدور الأخير كانت السيادة للعدنانيين. وقد شكل العدنانيون معظم قبائل الإسلام: قضاة، وربيعة، ومضر، وأباد، وأنمار. ويعتقد بأن النبطيين الذين سبقوا العدنانيين هم فرقة من عمالقة العراق، بدو الأراميين. وقد هجروا ضفاف الفرات بعد سقوط دولة حمورابي، وتوجهوا نحو سواحل الخليج العربي، ومن هناك تفرقوا قبائل ويطونا في أنحاء الجزيرة العربية.

ويعتقد المؤرخون أيضا بأن ثلاث هجرات، وفي عصور مختلفة، أمتت المنطقة الجنوبية من الأردن. ففي العصر الحجري أي ما يزيد عن سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، أتت الهجرات من الشمال والشمال الشرقي. وفي مطلع العصر البرونزي، أي في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد جاءت الهجرات من الشرق ومن الشمال الشرقي. وأخيرا في العصر الحديدي أي في الألف الثاني والأول قبل الميلاد جاءت الهجرات من الشرق والجنوب الشرقي، وكانت هجرات سامية. منها هجرة الآدوميين ما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، ثم هجرة الأنباط ما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

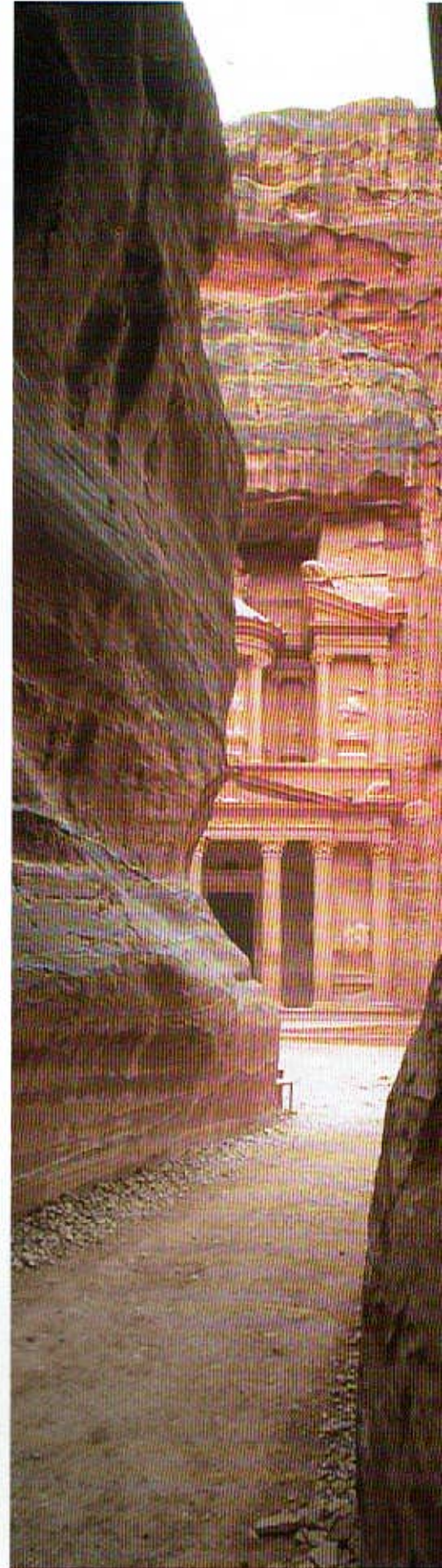
أقدم من سكن بلاد العرب الصخرية (جنوب الأردن) هم الحوريون، ثم تلاهم الآدوميون. وبينما كان الآدوميون منشغلين بحروبهم مع العبرانيين، كان الأنباط العرب، وبسبب الجفاف، يهاجرون من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. وظلوا يتغلغلون في مملكة الآدوميين يوما بعد يوم، إلى أن أصبح عددهم كبيرا فانتزعوا السلطة من الآدوميين، وأنشأوا دولتهم. وقد اندمج الآدوميون في الدولة الجديدة وصاروا شعبا واحدا.



دولة الأنباط

قامت دولة الأنباط العربية في جنوب الأردن، وقد عاشت هذه الأمة ما بين عام ٦٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٢٧٢ ميلادية، وامتدت من دمشق (التي دخلت في حكم ملكها الحارث الثالث عام ٨٥ ق.م)، إلى شمال-غرب الحجاز شاملة سيناء غربا، إلى بادية الشام شرقا. وكان طولها من الشمال إلى الجنوب مائة ميلا إلا أن عرضها من الشرق إلى الغرب فمختلف عليه، إذ أن المؤرخ جرجي زيدان قدر عرضها بعشرين ميلا على اعتبار أن حدودها الغربية كانت تنتهي في وادي عربة، بينما يقول الدكتور نقولا زيادة بأن رقعتها، في أوج عزتها، شملت صحراء سيناء. وحينها ضمت هذه المملكة جنوبي فلسطين وشرقي الأردن، وسورية الجنوبية الشرقية، وشمال الجزيرة العربية، وكانت دمشق قد دخلت في هذه المملكة، ومن دمشق النبطية انطلق بولس الرسول مبشرا بالمسيحية. وقد ساعد الأنباط على إنشاء دولتهم وصمودها في وجه الطامعين بأرضهم، طبيعتهم البدوية التي تتحمل التقشف، فاعتصموا في هذه الأرض الجبلية الصخرية القاحلة، متمتعين باستقلال تام، إلا أن هذه الطبيعة المتقشفة لم تمنعهم من الانفتاح على دور الحياة الاقتصادية في المنطقة، ومن التفاعل مع

الصورة الأولى في الصفحة (٤): بوابة الشق
الصورة على اليمين: الشق مؤديا إلى الخزنة وساحة التجار
الصورة على اليسار (أعلى الصفحة): واجهة الخزنة
الصورة على اليسار (أسفل الصفحة): منظر للشق



حضارتها، فاستوطنوا، ونفروا صهاريج في الصخور، وطفقوا يملأونها من مياه الأمطار في الشتاء، ليستعملوها لحاجاتهم المتنوعة، على مدار السنة. وقد تسمى ملوكهم بـ "الحارث" وبـ "عبادة" وبـ "مالك".

في البدء لم يكن عددهم يتجاوز العشرة آلاف نسمة، وكانوا حسب قول ديودورس الصقلي يعيشون: في أرض غير ذات زرع، فالأرض جافة قاحلة، والماء قليل، ومن عاداتهم أن لا يزرعوا الحبوب ولا أن يفرسوا الشجر ولا أن يبنيوا بيوتاً. كانوا يعتمدون بالأغنام كمصدراً لغذائهم، وكانوا يفتنون الإبل لاستعمالها في نقل البخور والتوابل. إلا أن الأمر تغير فيما بعد، وبتدريجياً انتقلوا من البداوة إلى الحضارة، وقد حدث هذا في القرن الرابع قبل الميلاد وكانت نقلتهم حسب قول الدكتور نقولا زيادة:

"من أروع ما عرفه الانتقال من البداوة إلى الحضارة في الشرق الأدنى". (نقولا زيادة، شاميات، ص ٣٤). وحسب رأي الدكتور فيليب حتى: "كان مثالهم هذا مثالا آخر يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الأدنى القديم وهو تحول الرعاة إلى مزارعين ثم إلى تجار في بلاد قليلة الموارد ولكنها حسنة الموقع بالنسبة لتجارة القوافل التي عوضت قلة من مواردها الطبيعية". (حتى تاريخ سورية، ص ٤١٧). وما كان مطلع القرن الأول الميلادي حتى كان الأنباط في عز مجدهم، وعن هذه الحقبة وصفهم الجغرافي سترابون: "الأنباط جماعة عاقلون معتدلون، وكانوا حريصين على أن يمتلكوا العقار والأرض، وكان الذي يتخلى عن ملكه يعرض نفسه للعقاب العلني، كما كان الذي يزيد أملاكه يُكرّم". وبلغ منهم الإدراك، حسب رأي براوننغ، بأنه: "أفضل لهم أن يحمو طرق التجارة ويحموا التجار من أن ينهبهم، على نحو ما كانت العادة قد جرت من قبل". (نقولا زيادة، شاميات، ص ٣٦). وبهذه العملية اكتسبوا ثقة القوافل التجارية، ومنذ القرن الثالث بدأوا ببناء المستوطنات التي تحولت إلى قرى ومدن عامرة.

ومما ساعد على نمو دولة الأنباط، دبلوماسيتهم، ثم انشغال الفرس باليونان وانشغال السلوقيين والبطالسة بحروبهم مع بعضهم.

ويخصص الدكتور نقولا زيادة تاريخ الأنباط في الجدول التالي: (شاميات، ص ٣٧).

– القرن الخامس قبل الميلاد: وصولهم إلى ظاهر البتراء.

– القرن الرابع قبل الميلاد: توافد الأعداد الأكبر، قوم بدو أصلاً، لكنهم سيطروا على الحياة القبلية والاقتصادية في الجوار. هجوم أنتيغونوس على البتراء أول إشارة تاريخية موثوق بها سنة ٣١٢ ق.م.

– القرن الثالث قبل الميلاد: انتقلوا إلى الحياة المستقرة، وأنشأوا مستوطنات كثيرة، ونشأت عندهم ملكية.

القرن الثاني قبل الميلاد: اتسعت مملكتهم بحيث

امتدت من دمشق إلى مدين صالح، ومن البتراء إلى جنوب فلسطين.

– سنة ١٦٨ ق.م: أول ملك من الأنباط يعرف اسمه وهو الحارث الأول الذي كان يلقب "ملك نبطو".

– أعوام ٨٤ – ٥٦ ق.م: الحارث الثالث – المحب للهيلينيين.

– أعوام ٣٠ – ٩ ق.م: عبادة الثاني.

– أعوام ٩ ق.م – ٤٠ ق.م: الحارث الرابع المعروف باسم "المحب لشعبه".

– ١٠٦ للميلاد: استيلاء الرومان على البتراء، والقضاء على استقلالها.

قضى الإمبراطور الروماني تراجان على الأنباط

نهائياً عام ١٠٦ ميلادية، وأنشأ ولاية جديدة سماها "الولاية العربية" وكانت عاصمتها بصرى الشام. إلا أن القسم الجنوبي من الولاية سلخ فيما بعد وبشكل مع فلسطين الجنوبية ما سمي "فلسطين الثالثة". اعتنقت البتراء المسيحية في القرن الثالث.. ثم جاء زلزال أيار/

مايو عام ٣٦٣ م ومن بعده زلزال عام ٥٥١ م ثم ثلاثة عشر قرناً من العواصف الرملية، والسيول الفانضة، هذه كلها أحوال البتراء إلى ركاب من الانقراض إلا ما بقي لنا من آثارها، وبعض الخبراء يقدر لا بل يأمل بأن ٧٥٪ من قطاع المدينة القديمة لا يزال تحت الانقراض. وبعد زوال البتراء تحولت الطرق التجارية إلى تدمر وإلى البحر الأحمر عن طريق مصر، وجاءت بعد ذلك دولة الغساسنة لتتولى الدور السياسي. دخلت بلاد الأنباط في الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع أثناء فتوحات الشام. دخلها الصليبيون عام ١١٠٠ ميلادية، إلى أن استعادها صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٩ ميلادية. وقد بقيت بترا تحت الانقراض إلى أن اكتشفها الرحالة السويسري بوركهارت،

البتراء. كانت البتراء (بطرا) تلك المدينة الحمراء الوردية عاصمة للدولة النبطية. هي الرقيم عند العرب. اكتشفها الرحالة بركهارت Berkhardt في ٢٢ آب/ أغسطس من العام ١٨١٢. وليست بطرا من بناء الأنباط، وإنما هي مدينة أومية، جاء في سفر الملوك الثاني.. أنها كانت حصناً في أيام أمصيا سنة ٨٢٨ ق.م. والتوراة تسميها سلاخ (الحجر) فلما صارت إلى الأنباط وعرفها اليونان سموها بطرا.. (زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٩٣). وبترا كلمة يونانية تعني الصخر. وقد جعلتها ثقة التجار خزنة للودائع التي كانت القوافل تحتاجها في إقامتها وفي مسيرتها، فإحدى الطرق التجارية الثلاث التي عرفها العرب كانت تبدأ من سواحل عمان ثم تمر في مارب العاصمة اليمنية القديمة، وتتجه شمالاً عبر نجران والحجاز مروراً بمكة إلى مدينة العلا على الحدود النبطية ثم إلى تيماء بين الشام ووادي القرى، ومن هناك إلى البتراء. وكانت رحلة قوافل الجمال المحملة بالبيضائع تستغرق ثلاثة أشهر حتى تصل إلى البتراء. وكانت هذه

المدينة، آنذاك، قبل ألفي سنة، تبدو كنجم بعيدة وقبلة تأتي إليها تلك القوافل القادمة من أقاصي الجزيرة.

ومن البتراء كان يتفرع طريقان أحدهما يتجه إلى بصرى ودمشق وتدمر وحلب والسواحل السورية. أما الثاني فكان يتجه إلى مصر وأفريقيا خلال العقبة وغزة. وكان الأمن مستتباً في هذه القلعة الصخرية، وكانت دولة الأنباط وعاصمتهم بترا مصدر ثقة لقوافل التجار الآتية من الجزيرة العربية وسورية ومصر وكانت تودع أموالها ومقتنياتها فيها.

في مسرحية بترا الرحبانية يعلن وزير في البلاط النبطي: "حضرات الزوار من بلدان خاضعة لحكم الرومان، وصلوا مع القوافل، جاين يودعوا بخزنة بترا أموالن وكنوزن ودهبين لأنوروما عم تنهبين".

ويتقدم الضيوف بمقتنياتهم قائلين:
دهبنا أموالنا تماثيل الأجداد
أمانة أحفظلين من ظل الاستعباد

في أسواق هذه المدينة مرت الجلود المدبوغة، ومرّ البخور واللبان القادم من عمان، والعاج الإفريقي، والحرير الصيني، ومرّت التوابل الهندية، وأساور الذهب الحلية المرسله إلى أسواق اليمن.

وتجار بترا اشتهروا بفطنتهم ودهائهم، وهم يقول الدكتور زيادة: لم يكونوا جميعاً من الأنباط فقط، فقد زخرت المدينة بالتجار اليونان والعرب والسوريين والرومان وغيرهم. ومن ثم فقد كانت لغات مختلفة تتسمع في أسواق المدينة: العربية والآرامية واليونانية واللاتينية والعبرية.

وقد كان من الطبيعي أن يكون في المدينة "كتاب عدل" تسجل عندهم المعاملات التجارية ومعاملات التملك.. (وكان) دائماً خلاصة للمعاملة بلغة الأنباط.. (شاميات، ص ٣٩). وقد ازدهرت هذه المدينة إلى حد أن عدد سكانها بلغ ما يزيد عن ثلاثين ألف في ذلك الزمن. امتدت هذه المدينة وضواحيها من وادي موسى شرقاً إلى أم البيرة وجبل الدير غرباً، على مسافة أربعمئة ميل مربع. مدخلها الرئيسي وادي موسى وهو الموقع الذي أتى إليه موسى والعبرانيون في رحلتهم من مصر عبر الصحراء. وقيل الدخول في بوابة الشق وعلى الطرف الأيمن، تعترضك ثلاثة أنصاب صخرية تدعى قوالب الجن، البعض يعتقد بأنها أضرحة والبعض الآخر يعتقد بأنها أنصاب أقيمت لتكرمة الآلهة الشرى "آلهة الأنباط. ويؤدي باب الشق إلى الشق نفسه وهو دهليز صخري من صنع الإنسان، يبلغ طوله أقل من ميل، تنتصب على جوانبه الصخور الرملية على ارتفاع يقارب المئتي متر. وفي الطرف الغربي من الدهليز ومن الجهة الجنوبية يطل عليك صرح شامخ جميل، ذو طراز هيليني، منحوت في الصخر، عرضه ٣٠ متراً وارتفاعه ٤٣ متراً، منظره يأخذ البصر ويحبس الأنفاس وهو يختال ببيبة لم تشخ على مدى ألفي سنة، هذا الصرح هو واجهة الخزنة التي تطل على ساحة كبيرة كان يجتمع فيها التجار. وينتهي الدهليز في

ممر عريض تقوم على جوانبه أضرحة تزيد عن الخمسة يعتقد بأن أكثرها آشورية، إلا أن أكبرها العوزون يعود إلى القرن الأول الميلادي وقد حوله البيزنطيون في القرن الخامس إلى كنيسة. أما المر نفسه فيؤدي إلى مسرح نبطي كبير يسع أكثر من سبعة آلاف شخص. وينتهي المر في الشارع الرئيسي للمدينة التي تنتشر على جوانبه الأعمدة الهلينية الطراز والذي كان سوقا يعج بالتجار ودكاكينهم ومنازلهم. وفي الطرف الشمالي من الشارع تقوم كنيسة بيزنطية، أما في الجهة الجنوبية فيوجد ما يسمى قصر البنت. ومن الزاوية الشمالية الشرقية لقب المدينة ينطلق سلم صخري من حوالي ثمانمائة درج، عبر جبل الدير ليصل إلى الدير نفسه وهو من أكبر الصروح النبطية يقوم على عرض ٤٥ مترا وارتفاع ٥٠ مترا. استعمله الأنباط كمعبد لهم وحوله البيزنطيون إلى كنيسة. حضارة الأنباط.

يقول الدكتور فيليب حتي: كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية. وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك. (حتى تاريخ سورية، ص ٤٢٦). كانت اللغة الرسمية للدولة النبطية هي اللغة الآرامية، ولكن كانت عندهم لهجتهم العربية التي كانوا يتفاهمون بها. والآرامية كانت لغة الكتابة في ذلك العصر أو ما يماثل اللغة العربية الفصحى الآن في وجودها مع اللهجات العامية المحلية. إلا أن المؤرخ جرجي زيدان يعتقد بأن كلا اللغتين اللغة الآرامية الرسمية واللغة النبطية العربية مرتبطتان بأبهما القديمة وهي لغة البدو الآراميين. (زيدان. العرب قبل الإسلام، ص ١٠٨). والآجدية العربية اشتقت من الحروف النبطية.

منذ استقرارهم استفاد النبطيون من الحضارات المجاورة. وهو أمر يتضح في الأبنية على اختلاف أنواعها ووظائفها وأشكالها: فقد وصلت إلى الأنباط عناصر من الحضارة البابلية (المتأخرة) عن طريق الصناع الذين حملهم نبونيداس الكلداني معه إلى الصحراء العربية. فأولئك الصناع لم يعودوا إلى بلادهم بعد زوال الدولة الكلدانية (٥٣٩ ق.م.) بل اتجهوا غربا وشمال غرب، وكان للبتراء من ذلك حصّة. (نقولا زيادة، شاميات، ص ٢٨). وتأثر الأنباط أيضا بالفرتين الذين كانوا سادة إيران والعراق، كما أنهم تأثروا بالحضارة السلوقية في الشمال، إذ استعانوا بالصناع السوريين في زخرفة أبنيتهم المنحوتة في الصخور.

أما ديانتهم فكانت سامية الجزور، طقوسها تشمل تقديس الشمس والقمر، وترتبط بدورة الفصول وعلاقتها مع مواسم الخصب، وحركات الطبيعة من ربح ويريق ورعد ومطر التي كان لها الأثر الكبير على الدورة الزراعية وعلى القوافل والتجارة. أما نظام الحكم فقد كان ملكيا ديموقراطيا،

وكان عندهم جمعية عامة غالبا ما كان الملك يقدم تقريرا عن أعماله إليها، ولم يكن هناك عبيد، وكان الناس متساوين في امتلاك الثروة وتوزيع الإنتاج، ولم يكن هناك فراء. وسادت العدالة بين الناس إلى درجة أنه لم تكن هناك دعاوي ضد بعضهم البعض.

أما من ناحية الري، فيقول الدكتور فيليب حتي: لم يكتف مهندسو المياه الأنباط ببناء ينابيعهم، ولذلك أصبحوا بارعين في استخراج المياه الباطنية، وفي استخدام مياه الأمطار القليلة وحفظها. ويبدو أنهم قد ورثوا تلك العصا السحرية، التي مكنت متجولا ساميا قديما، في تلك المنطقة، وهو موسى من استخراج المياه من الصخرة الجافة. وهكذا تمكنوا من انتزاع أجزاء من الصحراء وتحولها إلى أراض مزروعة، أكثر مما فعله أي شعب عربي من قبل أو بعد. (حتى تاريخ سورية، ص ٤١٨).

اشتهرت البتراء بالإنجازات الهندسية التي حققها أبناؤها في نقل المياه من الأماكن المجاورة عبر قنوات وخرزنها في أحواض داخل الأرض الصخرية، لتوزع من هناك، حسب الحاجة، على القوافل وعلى السكان، على مدار السنة وخصوصا في شهور الصيف حين تنقطع الأمطار، ويشد الحر، في وطن يشح الماء فيه، وتفتقده الناس اليوم كضرورة لا بد منها وكقدرة تعتمد عليها شرايين حياتهم. عرف الأنباط قيمته منذ أكثر من ألفي سنة. فجمعوه وخرزوه كما جمعوا غلال قمحهم، وقسوه بصلواتهم كما قسوا كل خير منحهم الطبيعة إياه. إن مئات الخزانات التي أنشأها الأنباط أنقذت البتراء من العطش أيام القحط، وفي الوقت نفسه فإن السدود التي وجهت مياه الأمطار في قنوات تغذي هذه الخزانات، منعت الفيضانات عن العاصمة.

ورغم زوال دولة الأنباط فإن البتراء ظلت مركزا

تجاريا حتى القرن الثالث للميلاد. واستمرت بعض أسواقها، حتى القرن الميلادي الرابع. فكان المر والبخور واللؤلؤ يأتيها من الخليج العربي، وكانت التوابل تأتيها من الهند، والحزير الخام من الصين، والمنسوجات الحريرية من دمشق والساحل الفلسطيني، والزجاج والأنسجة الأرجوانية من السواحل الفينيقية. واستخرج الأنباط في بلادهم الذهب والفضة والإسفلت ومعادن أخرى. كما أنهم استخرجوا الزيت من السمسم حيث أن الزيتون لم يكن موجودا عندهم. وزرعوا كروم العنب واستخرجوا الخمر منه.

ومع أن الأنباط تفاعلوا مع الحضارة الهلينية فقد استطاعوا، تارة بقوتهم وأخرى بحنكتهم ودهائهم السياسي، أن يحموا دولتهم وراثتهم الثقافي والحضاري من هجمات اليونان، والفرتين، واليهود، والروم لفترة، ولم تستطع الديانة اليهودية أن تعبر نهر الأردن. إلا أن نهايتهم كانت على أيدي الذين قضوا على مراكز الحضارة في بلادنا.

وفي مسرحية بترا الرحبانية أيضا يخاطب الملك النبطي جموع شعبه:

يا أهالي بترا
روما جايي تخضعكن
جايي تنهبكن
تأخذ نسوانكن سبيا
وولادكن عبيد

ويصبح الشعب: تسقط روما، تسقط روما...

وكما قضت على إنطاكية وعلى الاسكندرية وكما ستأتي وتقضي على تدمر، قضت روما على بترا. في صلابتهم البدوية كان الأنباط أقوى من الصخر الذي شقوه ونحتوه، وفي حنكتهم واستعدادهم الحضاري كانوا أسس شعب عرفته البشرية.

